مجلة بادر
المُحكّمة لعلم النفس الإسلامي

تجديد العلوم الإسلامية من منظور طه عبد الرحمن دراسة في علاقة المقاصد بالقيم أنموذجا

الدكتور محمد البطيخي[1]

elbetikhi1980@gmail.com

الملخص:

يعد هذا البحث مساهمة في إبراز محاولات التجديد في العلوم الإسلامية باستحضار جهود طه عبدالرحمن خصوصا في موضوع المقاصد الشرعية وعلاقتها بمنظومة القيم، أو تخليق الشريعة وإبراز وحدتها الأخلاقية في مخاطبة الناس وإصلاحهم، بناء على قيام الرجل بمساهمة في تجديد العلوم الإسلامية من مدخل العلوم الإنسانية، حيث جعل من علم المقاصد علما أخلاقيا وتربويا بالأساس، في وقت تعددت القراءات والنظرات للعلوم الشرعية عامة وعلم المقاصد خاصة، وفي وقت الحاجة ماسة إلى الاعتبار بالمستجدات والوقائع المعاصرة.

وخلص البحث إلى أن طه عبد الرحمن تناول الموضوع من زاوية فلسفية وأخلاقية، داعيا إلى إعادة النظر في قراءة علم المقاصد بما يحقق مرجعية لنظرية القيم وحتى تكون الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، وأن يحفظ للنص الشرعي مكانته ويحقق وظيفته.

المفاهيم الأساسية: التجديد - المقاصد الشرعية- القيم.

---

[1] - باحث تربوي، دكتوراه في الفكر التربوي المعاصر.

Renewal in Islamic Science from Taha Abdul Rahman's Perspective Study on the Relationship of Values to Purposes

Dr. Mohamed Elbetikhi[2]

elbetikhi1980@fmail.com

Summary:

This research is a contribution to highlighting attempts to innovate in Islamic sciences by invoking Taha Abdulrahman's efforts, especially in the subject of legitimate purposes and their relationship with the value system. or the creation of sharia law and its moral unity in addressing and reforming people, Based on the man's contribution to the renewal of Islamic sciences from the entrance to humanities At the time of many readings and views of the Shari 'a sciences in general and the science of purposes in particular, and at the time of urgent need to take into account contemporary developments and realities. The research concluded that Taha Abdulrahman dealt with the subject from a philosophical and moral standpoint, calling for reconsideration of the reading of the science of purposes to achieve a reference for the theory of values so that the Islamic sharia is valid for every time and place, and to preserve the legitimate text's status and fulfil its function.

Keywords: Renewal, legal objectives, values.

[2] Researcher in education, doctor in contemporary educational thought

مقدمـة:

سياق البحث وإشكالياته:

يعالج هذا البحث سؤالا أسال مدادا كثيرا، وكتب حوله عديد من الفقهاء والمفكرين، وهو سؤال التجديد والتكامل بين العلوم الإسلامية والموضوعات الإنسانية عامة، وبين نظرية القيم والدرس المقاصدي على وجه التحديد، فمن قائل بأن المقاصد هي القيم الأخلاقية بمرجعيتها الدينية ومنها تحقق وظيفتها التربوية والتشريعية، إلى قائل بأن العقل هو من يتربع عرش تحديد هذه المقاصد ومن ثم الأخلاق أيضا، إلى قائل بأن العلماء المقاصديين همشوا درس الأخلاق، ولم يولوها كبير اهتمام في استنباطاتهم وقراءاتهم للواقع المعاصر، وفي هذا السياق، اخترت في هذه الورقة موضوع التجديد في العلوم الإسلامية بالتركيز على المقاصد الشرعية ومنظومة القيم، انطلاقا من استحضار جهود الدكتور طه عبدالرحمن في الموضوع، بقصد مناقشتها ومدارستها، منطلقا من التساؤل المركزي الآتي:

1. أي علاقة بين العلوم الإسلامية والموضوعات الإنسانية عامة ومنظومة القيم والدرس المقاصدي خاصة؟
2. ما مدى فعالية مقترح الدكتور طه عبدالرحمن في تجديد النظر المقاصدي انطلاقا من ربطه بالبعد القيمي والنظر الأخلاقي؟

<u>أهدف الورقة البحثية:</u>

- إبراز أهمية تناول سؤال التأسيس الشرعي لنظرية القيم في ضوء المستجدات،
- الوقوف على آليات علم المقاصد وشروط تأسيسه للعلاقة الشمولية،
- كشف العلاقة القائمة بين علم المقاصد ومنظومة القيم الحاكمة في الإسلام.

<u>الخطوط العامة لمنهجية الورقة:</u>

استدعت منهجية تناول هذه الورقة العلمية، توظيف المنهج الوصفي؛ بقصد عرض الأفكار الرئيسية، والمنهج التحليلي، لتحليل وتفكيك الأفكار المنظمة، والمنهج المقارن بهدف المقارنة بين الأفكار المتناظرة في الموضوع.

أولا: تحديد المفاهيم الأساس: المقاصد الشرعية – منظومة القيم:

1. المقاصد وأهم تعريفاتها:

اهتم المسلمون بمقاصد الشريعة الإسلامية أيما اهتمام منذ فجر الإسلام، واستمر هذا الاعتناء من المتقدمين والمعاصرين بالمقاصد، وقد كانت تعرف عند أوائل المسلمين بعلم الصلاح أو المصالح، وفي هذا السياق، عرف الإمام أبو حامد الغزالي المصلحة بقوله: "نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشارع.."[3] وعزا نورالدين الخادمي سبب انعدام تعريف دقيق للمقاصد عند الأوائل إلى:

- طبيعة العمل الفقهي الأصولي في عصور التشريع الأولى والتي كانت تتأسس على سرعة الاستحضار الذهني والسليقة العلمية والملكة الاجتهادية.
- طبيعة المادة المقاصدية المتسمة بالاتساع والضخامة والتشعب..
- طبيعة البحث العلمي القائمة على أساس الجهود التكاملية في صياغة علم أو فن[4].

وإذا كان المتقدمون لم يعرفوا علم المقاصد فإن العلماء المتأخرين قد أحاطوها بتعريفات عديدة تتقارب فيما بينها ولو تم الاختلاف في التراكيب والتعابير، وقبل التذكير ببعض تعريفات المتأخرين، يحسن بالمقام التذكير بالأصل اللغوي لمفهوم المقاصد، فمن حيث الاشتقاق اللغوي، فالمقاصد جمع مقصد، وهو من فعل قصد يقصد قصدا. قال ابن فارس: القاف والدال والصاد أصول ثلاثة، يدل أحدهما على إتيان الشيء وأمه، والآخر: على اكتناز في الشيء.. والثالث: الناقة القصيد؛ المكتنزة الممتلئة لحما"[5]. ومن القصد العدل والاستقامة والتوسط. ومن حيث التعريفات العلمية التي اصطلح عليها المتأخرون أذكر على سبيل الإجمال:

- فقد عرف محمد الطاهر بن عاشور المقاصد العامة بقوله: "هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"[6].

---

[3] - أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم أصول الفقه، ص، 174.

[4] - نور الدين الخادمي، أبحاث في مقاصد الشرعية، مؤسسة المعارف، ط/1، 2008، ص، 12- 13 بتصرف.

[5] - ينظر ابن فارس، معجم مقايس اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، ط/1، 1991، دار الجيل بيروت، ج/5، ص، 509.

[6] - محمد الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص، 171.

- وعرف علال الفاسي المقاصد بقوله: المراد بمقاصد الشريعة، الغاية منها والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[7].

- أما العلامة أحمد الريسوني فيقول: إن مقاصد الشريعة هي الغاية التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد"[8].

انطلاقا من هذه التعاريف فالمقاصد هي الآثار والحكم التي تترتب على الأحكام الشرعية.

2. القيم وأهم تعريفاتها:

يقع موضوع القيم ضمن اهتمامات العلوم الإنسانية المعاصرة، وأصبحت الأسئلة ذات الطابع القيمي تجد مكانتها في العصر الراهن، وصارت القيم المادية والفردية تطغى على غيرها من القيم. وتحول ذلك إلى إشكالات بحثية في مجال القيم، ولهذا تم تناولها بالدراسة والتحليل من زوايا مختلفة وبمنهجيات متعددة، إذ تحدث عنها الفلاسفة فكانت موضوعا من مواضيعهم الهامة، وتكلم عنها السياسيون باعتبارها أحد المعايير لتجويد الفعل السياسي، وتكلم عنها علماء الاجتماع؛ لارتباطها الوثيق بحياة الفرد والجماعة، كما كانت محل دراسة عند علماء النفس والتربية.

ومن البداهة أن يخضع مفهوم القيم للتعددية في التعريف تبعا لتعدد الحقول التي اهتمت به، ومن بين هذه التعريفات التي أعطيت للقيم: أنها جملة من المقاييس والمبادئ التي نستعملها للحكم على قيمة الشيء، وهي المعايير التي نحكم من خلالها على الأشياء (الناس، والأعراض، والأفكار، والأفعال، والمواقف) بأنها جيدة، وقيمة، ومرغوبة أو على عكس ذلك بأنها سيئة، ومن غير قيمة، أو قبيحة"[9].

وهناك من رأى أن القيم: "مبادئ ومعايير متقاسمة لتوجيه المفاهيم والتمثلات والأحكام (التقييمات) والسلوكات والمواقف والاتجاهات والمسوغات التي يتم إضفاؤها على الفكر والممارسة والسلوك"[10]. حتى أمكن القول إن هناك ثلاثة اتجاهات رئيسة تعاملت مع مفهوم القيم انطلاقا من:

---

[7] - علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ص، 3.

[8] - أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الشاطبي، ص، 7.

[9] Shaver and Strong - نقلا عن ماجد زكي الجلاد، تعليم القيم وتعلمها، ص، 22.

[10] - المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي، 17/1، يناير 2017، ص، 4.

- النظر إلى القيم باعتبارها مجموعة من المعايير التي يحكم بها على الأشياء بالحسن والقبح.
- النظر إلى القيم باعتبارها تفضيلات يختارها الفرد.
- النظر إلى القيم باعتبارها حاجات، ودوافع، واهتمامات، واتجاهات، ومعتقدات ترتبط بالفرد[11].

إنَّ تعدد هذه الاتجاهات، جاءت نتيجة تعدد أنظار الفلسفات والمدارس الوضعية للقيم. فأنتجت وفرة معرفية حيالها، بدءا بالتعريف وانتهاء بالخصائص والتصنيف. وإن كان البحث لن يأخذ في تفاصيل قضية القيم وجزئياتها؛ لأن مخاضها يحتاج لبحث مختص، والحال أننا أمام بحث يروم معالجة موضوع القيم في علاقته بالفكر المقاصدي.

وإن نحن أدلفنا إلى مفهوم القيم الإسلامية نجده من المفاهيم المستجدة في حقل العلوم الإسلامية؛ ذلك أنه لم يتداول في كتب التراث الإسلامي بهذا التحديد الذي صار عليه اليوم، فلسنا عدميين فنقول بأن العرب والمسلمين لم ينتجوا ولو جملة واحدة في الأخلاق كما قيل، بل كانت عندنا كتابات عن الأخلاق والرقائق والآداب والسلوك، ولكن القيم كعلم له ضوابطه وقواعده كما هو عليه اليوم، يرجع بعض الباحثين ظهوره إلى التأثر بالاتجاهات التربوية المعاصرة، وتم تأسيسه على بعدين اثنين: البعد السلوكي، والحكم الشرعي الذي يحكم به على هذا السلوك من حيث كونه حسنا أو قبيحا"[12]. ولكن ارتباط الأخلاق بالدين الإسلامي هذا مما لا يختلف فيه أحد، بل إن السلوك في الإسلام لا يصح إلا عن إرادة واعية واعتقاد جازم يصحح تصورات الإنسان.

ومن التعريفات التي أعطيت للقيم الإسلامية، أنها: "مكون نفسي معرفي عقلي ووجداني أدائي يوجه السلوك ويدفعه، ولكنه إلهي المصدر، ويهدف إلى إرضاء الله تعالى"[13]. فالقيم الإسلامية هي حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع، محددا المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك"[14].

---

[11] - ماجد زكي الجلاد، تعليم القيم وتعلمها، ص،21.

[12] - ماجد زكي الجلاد، تعليم القيم وتعلمها، ص، 54.

[13] - إسحاق الفرحان، ومرعي توفيق، اتجاهات المعلمين في الأردن للقيم الإسلامية، 1987، ص، 99، نقلا عن ماجد زكي الجلاد، تعليم القيم وتعلمها، ص، 55.

[14] - أحمد حسن الشحات، الصراع القيمي لدى الشباب ومواجهته من منظور التربية الإسلامية، القاهرة دار الفكر العربي، ص، 2. نقلا عن ماجد زكي الجلاد، تعليم القيم وتعلمها، ص، 55.

فهي إذن: قواعد ومبادئ ومعتقدات لابد وأن تستند لمرجعية معينة، ونحن المسلمين مرجعياتنا القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن خلالهما يتم تقييم سلوكات الأفراد والجماعات. وإذا كان الإنسان يرتقي في سلوكاته بتمثل القيم، بعد أن يتربى عليها وفق تخطيط بعيد المدى، يشترك في تنفيذه جميع المؤسسات الاجتماعية؛ بما فيها الأسرة والإعلام والمسجد والمدرسة، فإن ذلك لا يكون إلا بعد أن يتم الحسم في النموذج القيمي المراد البناء عليه وفق مرجعية ثابتة وواضحة لا تخضع للتشويش. يصرح فيلسوف الأخلاق الدكتور طه عبدالرحن قائلا: "يختلف تصورنا للأخلاق عن تصور الجمهور لها من جانبين على الأقل، أولهما: ليست الأخلاق عندنا جملة من الصفات الحسنة التي تكمل سلوك الأشخاص، **وإنما هي مجموعة من الصفات الضرورية لهذا السلوك، بحيث إذا فقدها الفرد نزل عن رتبة كإنسان، وأصبح معدودا في الأنعام**، ولا هي من جملة محاسن العادات التي يتصف بها تعامل المجتمعات فيما بينها، **وإنما هي مجموعة من العادات الضرورية لهذا التعامل، بحيث إذا فقدها المجتمع اختل نظام الحياة فيه وأصبح معدودا في القطعان**، ومن هنا تكون ضرورة الأخلاق فوق ضرورة الحاجات المادية للإنسان، لأن فوت الحياة مع وجود الأخلاق خير من حفظها مع عدم الأخلاق"[15]. فالأخلاق إذن حسب التحديد الطاهوي هي: "جملة من المبادئ والقواعد التي يقع بها التمييز بين الخير والشر في الأفعال وتقويم سلوك الإنسان بتوجيهه إلى فعل الخير وترك الشر"[16]. فالأخلاق إذن ترتقي إلى مستوى الضروري من حياة الإنسان.

ثانيا: التشريع الإسلامي والبعد المقاصدي

لقد اهتم المسلمون بالمقاصد الشرعية مذ صدر الإسلام، فقد كان الصحابة الكرام يدركون مرامي الشريعة الغراء، واستوعبوا منطوق النص الشرعي وفحواه، وكانت المصالح تراعى في اجتهاداتهم ومعاملاتهم، وعلى أساسها ازدهر الفقه الإسلامي، فكلما أراد المسلمون تأسيس قولهم في المصالح، رجعوا إلى ممارسة الصحابة الكرام كمنطلق في اجتهاداتهم، وهكذا عم العمل بالمصلحة، وبرز علماء مقاصديون عبر عصور الإسلام، فقد نبغ علماء من التابعين كفقهاء المدينة السبعة، والأئمة الأربعة. وتوالت

[15] - طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، ص، 292.

[16] - طه عبد الرحمن، العمل الديني وتجديد العقل، ص، 105-106.

الاهتمامات بموضوع المقاصد، فبرز في القرن الرابع الهجري، الحكيم الترميذي صاحب كتاب: الصلاة ومقاصدها، وظهر أبو الحسن العامري صاحب كتاب: الإعلام بمناقب الإسلام، وكذلك أبو بكر الشاشي، المعروف بالقفال الكبير، صاحب كتاب: محاسن الشريعة، وجاء الإمام الجويني صاحب كتاب البرهان، ثم الغزالي والعز بن عبدالسلام والقرافي، واختتم هذا المسار بأبي إسحاق الشاطبي الذي يمثل آخر المتقدمين، فقد أبدع صاحب كتاب الموافقات، وجدد بذلك علم المقاصد، وأسس الكلام فيه تقعيدا وبيانا، وأبدع بذلك في الدرس المقاصدي، وتلقى علماء العصر الحديث، كتاب الموافقات بالقبول، وانتشر في عديد من بلدان العالم الإسلامي، كالأزهر والزيتونة... وعم الاهتمام بكتاب الموافقات، وأدى ذلك إلى ظهور علماء معاصرين اهتموا بعلم المقاصد، وأفردوا فيه التأليف، كالشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، وعلال الفاسي صاحب كتاب: مقاصد الشريعة ومكارمها، والدكتور يوسف القرضاوي وعبدالله بن بيه وجمال الدين عطيه وأحمد الريسوني وغيرهم.

من خلال هذا التذكير المقتضب يبدو أن المقاصد الشرعية ظهر الاهتمام بها منذ عصر النبوة والصحابة الكرام والتابعين، الذين عملوا بالمصالح، فجمعوا القرآن، ودونوا الدواوين، وجمعوا أنفسهم على صلاة التراويح... واستمر عمل المسلمين وفق هذا المنوال، وتوالت إبداعات كبار العلماء الذين اختصوا في المقاصد، حتى أفردها المتأخرون بالتأليف والتجديد، وأصبح البحث في المقاصد مطلب الجميع؛ مختصين وغير مختصين، خصوصا بعد التحولات والمستجدات التي طرأت على حياة الناس وواقعهم، فمن العلماء من توسع في علم المقاصد وأضاف بعض الضروريات كالبيئة.. والعدل... وجعلها من الكليات، ومنهم من طالب بإعادة تصنيفها، ومنهم من دعا إلى تجديد المقاصد بخلفية ذاتية لا تنضبط بالضوابط الشرعية، ودعا إلى التوسع في العمل بها بتحكيمها للواقع بدل النص، حتى أصبحت المقاصد شماعة، الكل يعلق آماله عليها. وفي سياق هذه الخطابات المتنوعة، برز خطاب تجديدي في المقاصد لا يلغي ارتباط المقاصد بالنص باعتباره الأصل فيها، ولكن يجعل منها ناطقة بروح النص وفحواه. ويعتبر خطاب طه عبدالرحمن من هذا الصنف، فكيف قارب طه عبدالرحمن موضوع التجديد في علم المقاصد؟ وما تجليات العلاقة التي نسجها بين علم المقاصد ومنظومة القيم؟

ثالثا: علم المقاصد ومنظومة القيم أية علاقة في ضوء جهود طه عبدالرحمن؟

1. **التجديد المقاصدي ومنظومة القيم: رؤية تكاملية**

شكلت مدونة المقاصد ثراء معرفيا ومرجعية ثابتة؛ لتقريب الرؤية بين العلوم الإنسانية والأحكام الشرعية من جهة، وبناء منظومة القيم الأخلاقية من جهة ثانية، باعتبار المقاصد غايات تهدف إلى تأطير السلوكات البشرية وتربيتهم في ظل الحياة الاجتماعية، وقد جاءت في هذا السياق مساهمات أبي إسحاق الشاطبي، الذي أسس لرؤية تكاملية بين المقاصد والقيم، وجاءت عطاءات طه عبدالرحمن كخطوة بيانية في الموضوع، باعتبار الرجل فيلسوف التربية الأخلاقية، وسم مشروعه بسمة عامة، تتمثل في إحياء منظومة القيم وجعلها تنتظم تحتها كل تحركات الإنسان وأفعاله. وفي مجال المقاصد الشرعية تحديدا أتى بسؤال المراجعة فيها، غايته في ذلك إعادة تشكيل العقل المقاصدي انطلاقا من التأسيس الائتماني، وإخراج المقاصد من سياق الائتماري إلى سياق التخليق. من هذا المنطلق، سعى إلى تجديد الدرس المقاصدي، وبما أنه مقتنع بأن البنية الخلقية هي الروح التي تسري في التشريع الإسلامي، وأن المرغوب أصالة في الحكم الشرعي هو القيمة الخلقية. فما تأثير المنظور الأخلاقي عند طه عبدالرحمن في تجديد النظر المقاصدي؟

لقد تناول الرجل موضوع المقاصد في سياق التصدي لدعوى تجديد التراث عبر آلية تاريخية لا تنتسب للسياق التداولي الإسلامي، فقد كان هاجس طه الرد على دعوات معاصرة، الذين توسلوا بمجموعة من الآليات، بما في ذلك آلية الانطلاق من التراث، عبر إعادة قراءته - بمختلف مكوناته اللغوية والفلسفية والأصولية والفقهية والمقاصدية..- وفق تصور عقلاني ومنظور جديد، يأخذ بعين الاعتبار المحددات والآليات المعاصرة، ومتغيرات الواقع ومستجداته، معتبرين بأن التراث الإسلامي عرف بعد عصر الصحابة والخلفاء الراشدين ركودا وجمودا نتيجة القيود التي سلطت على النص الشرعي، فحنطته حتى أصبح لا يلائم وقائع الناس ومستجداتهم، ويعد خطاب محمد عابد الجابري، واحدا من هؤلاء، فالرجل يستند إلى هذه المعطيات كأرضية لرؤيته وتصوره، ويرى أن منهج التجديد والاجتهاد في العلوم الإسلامية يقوم على مدخل المصالح، بدل التقيد بالنص وقواعده، فهو يعترف بوجود طريقتين في التعامل مع النوازل والمستجدات فيقول: "الطريقة الأولى التي تعتمد القياس والتعليل واستثمار الألفاظ، والطريقة الثانية التي تدعو إلى اعتبار المقاصد أساسا ومنطلقا"[17]. وهكذا وجدناه يتنصر للطريقة الثانية ويدعو إلى

---

[17] - الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، ص،169.

العمل بها؛ لأنها تمنح المجتهد" دائرة واسعة لا حدود لها، دائرة المصلحة، وبالتالي فهي تجعل الاجتهاد ممكنا ولدى كل حالة"[18]. أما العمل وفق الطريقة الأولى (القياس والتعليل واستثمار الألفاظ)، فالاجتهاد يصير فيها متكلفا وضعيفا، وقد ينتهي الأمر بالمجتهد إلى التوقف والتقليد،؛ لأن الدائرة التي يتحرك فيها، دائرة التعليل والقياس واستثمار الألفاظ دائرة ضيقة لا تسمح بمواصلة الاجتهاد من دون انقطاع"[19]. وحدد لذلك مرجعية واحدة ووحيدة، وهي عمل الصحابة الكرام، حيث صرح قائلا: " فإن تطبيق الشريعة يتطلب إعادة تأصيل الأصول على أساس اعتبار المصلحة الكلية، كما كان يفعل الصحابة[20]. فكل تجديد حسب ما يراه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار قضية إعادة النظر في تأصيل الأصول ببعد مقاصدي، ويمتاح من عصر الصحابة مرجعيته. فَهَمُّ الرجل في نهاية الأمر، توسيع دائرة المقاصد، وتضييق سلطة النص.

من خلال ما سبق، تبين أن الجابري طالب بإعادة تأصيل الأصول، ولا سيما أصول الفقه، وبناء منهجية تجديدية، تأخذ بعين الاعتبار المقاصد والوقائع المعاصرة، داعيا إلى عملية تأسيس معقولية الأحكام، والتي بدونها لا يمكن تطبيق الشريعة على النوازل المستحدثة، والذي يؤسس هذه المعقولية هي مصالح الناس، ومن ثم فهي أصل الأصول في الاجتهاد المعاصر.

وفي ظل هذه الدعوات، انبرى الدكتور طه عبدالرحمن للقول في تجديد العلوم الإسلامية من مدخل المقاصد وبنفس قيمي أخلاقي، فتبين له أن التراث الإسلامي وخاصة الدرس المقاصدي منه، يكتنز من الاختلالات والقلق المنهجي ما يجعله في حاجة إلى تجديد النظر فيه، فهو من جهة يرد على الموسعين الذين يودون التفلت من قيود النص، ومن جهة أخرى، يحاور المقاصديين القدامي والمعاصرين على السواء، فقد بدا له أن تقسيم الأصوليين للمقاصد وحصر مراتبها في ثلاثة وتهميش الدرس الاخلاقي فيها...، يحتاج إلى إعادة تحقيق ونظر؛ مما جعله يقوم بالرد على الإخلال بشرط التمام والتباين والتخصيص والترتيب.

الرجل أقبل على إعداد وثيقة علمية يدعو فيها إلى إعادة قراءة التراث وتجديد آلية فهمه وتقويمه، وهو الكتاب الذي سماه ب: "تجديد المنهج في تقويم التراث" كما تناول أيضا نفس الموضوع في مقال علمي وسمه ب: "مشروع تجديدي علمي لمبحث مقاصد الشريعة" الذي نشر في مجلة المسلم المعاصر عدد 103. وختم

---

[18] - محمد عابد الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، ص 171.

[19] - نفسه، ص، 70.

[20] - محمد عابد الجابري، سلسلة مواقف، عدد 28، ص 40.

نقاشه في الموضوع بكتابه: "التأسيس الائتماني لعلم المقاصد" الصادر عن مركز بحوث للدراسات والنهوض سنة 2022.

لقد آل الرجل على نفسه الدفاع عن الدرس الإسلامي وتجديده بما يلائم التحولات والمستجدات المعاصرة، وذلك بإبراز مدى العلاقة بين علم المقاصد ومنظومة القيم، وقد تناول ذلك من خلال العناصر الآتية:

2. أية علاقة للمقاصد الشرعية بمنظومة القيم؟

بداية هل يمكن الفصل بين المقاصد والقيم في شريعتنا الإسلامية وتطبيقاتها العملية؟ وهل المقاصد الشرعية غاية في ذاتها أم أنها تعتبر وسيلة إذا كان الأمر يتعلق بوظيفيتها والتي منها بناء منظومة القيم وتخليق الحياة العامة؟

النظرة التجديدية في المنظومة الأخلاقية الإسلامية تقوم في علاقتها بمقاصد الشريعة، على التجديد في مفهوم الأخلاق أولا، حتى يتوسع فيها؛ لتصير مفهوما عاما، يشمل الإنسان وجميع أنشطته. فقد انتقد طه عبدالرحمن من يهمش دور القيم في الصناعة الفقهية قائلا: " لقد غلب على الظنون منذ زمن بعيد، أن الأخلاق هي مجرد أفعال محدودة من أفعال الإنسان، وأنها لا تدخل في تحديد ماهيته- أو باصطلاح المعاصرين هويته- بقدر ما تدخل في سلوكه؛ وهذا باطل كليا، وبيان بطلانه، أنه ما من فعل من أفعال الإنسان إلا ويقترن إما بقيمة خلقية عليا ترفع هذا الفعل درجة، فتزداد إنسانية صاحبه، أو بقيمة خلقية دنيا تخفض هذا الفعل درجة فتنقص إنسانية صاحبه وهذا يصح حتى ولو كان الفعل مجرد فعل ذهني، لا فعلا عينيا" [21].

فهوية الإنسان حسب منظور طه عبد الرحمن، تتحدد بالأخلاق وليس بالعقل، فهو يؤكد أنه لاإنسانية بغير خلق. كما أنه بنى رأيه على هذه المسلمة التي يؤكد فيها. "أنه لا أخلاق بغير دين"[22]. مغلقا بذلك الباب على من يعتقد غير هذا، بل ويعتبر أن الأخلاق تنبني على الدين من خلال طريقين اثنين: أحدهما الطريق المباشر من الوحي، والاقتداء بالرسول العدنان عليه الصلاة والسلام، والطريق الثاني: اقتباسها من الواقع الذي اقتبسها

---

[21] - طه عبد الرحمن سؤال الأخلاق، ص، 42.

[22] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 148.

بدوره عن الدين وتنكر لذلك، فكل من لا يؤخذ بالطريق المباشر، فهو شاء أم أبى "يقع في الأخذ بالطريق الثاني من حيث يشعر أولا يشعر"[23].

إن الرجل حين يرجع الأخلاق إلى الدين، يتجاوز بذلك الآراء القائلة بتبعية الدين للأخلاق[24]. أو التي تقول باستقلال كل منهما عن الآخر[25] ". حيث قال: "أما القيمة فهي عبارة عن مثال، والمثال خلاف القانون؛ إذ القانون يسبقه الشك وقد يعقبه الخطأ، في حين أن المثال يسبقه اليقين ولا يعقبه إلا الصواب؛ فلا يبقى إلا أن الأخلاق على الأقل في أصولها، مصدرها الدين"[26]. يقول هذا وهو الذي استفاق على وقع الهجوم الكاسح على منظومتنا الفكرية والتربوية، حيث الانفصال عن الحقيقة الإيمانية في مناهجنا ومفاهيمنا، فبين عوراتها وسقطاتها، وبسط للناس بديلا إسلاميا، لكونه يحمل في نفسه طابع العالمية والخاتمية، ويعطي تصورات حول "كيفيات إعادة الاتصال بهذه الحقيقة، وتحصيل أسباب هذا الاتصال بما يحدد فاعلية الحقيقة الدينية ويرتقي بها"[27].

فالدين هو أساس الأخلاق ومصدره في المنظور الطاهوي، فالرجل استلهم رؤيته الأخلاقية من الوحي المنزل، بعد أن راح يدرس واقعه دراسة تحليلية ونقدية، حتى يكون ملما بأحداث زمانه، وحيث وجد منظومة فكرية مخالفة تهاجم أصول المجتمع وتعمل على التأسيس لمنظور قيمي أخلاقي خارج عن السياق التداولي الإسلامي، حيث انتشار عقيدة فصل العقل عن الأخلاق، وفصل الدين عن الأخلاق، وفصل السياسة عن الدين وعن العلم، بل وعن باقي مجالات الحياة كلها. مما جعله في مواجهة مع التوجهات المعرفية الغربية، منتقدا لها ومحاولا بناء نظريته الإصلاحية، التي مبناها يقوم على الصرح الأخلاقي، فكيف أصل طه عبدالرحمن لهذه النظرية الأخلاقية التي يريد بناءها وإرساء قواعدها؟

- استدعى الرجل ثلاثة دعائم رئيسية ليقيم عليها صرح مشروعه الأخلاقي والقيمي وهي:

أ. **الميثاق الأول:** يقصد به الميثاق الأصلي الذي قطعه الإنسان مع الذات العالية: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ

---

[23] - نفسه.

[24] - صاحب هذه الفكرة الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط.

[25] - صاحبها دافيد هيوم.

[26]- طه عبدالرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، ص، 66.

[27] - طه عبدالرحمن، من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر، ص، 35- 34.

أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ[28]. فالآية توضح هذا المشهد الأخلاقي الذي قطعه الإنسان على نفسه، الذي مضمونه الاعتراف الإرادي لله بالربوبية، والإقرار له بالعبودية قبل أن يولد في هذا العالم، إلا أنه غفل عن ربه ونسي ميثاقه وانفصل عن الدين، وتفرقت به السبل في موضوع التوحيد.

يمثل هذا الميثاق أخلاقا كونية، والتي من صفاتها: أنها مؤسسة من قبل العلي القدير، كما أنها أخلاق متعدية إلى كل العالم، فهي لا تعمد إلى صلاح الفرد وحده ولا صلاح الأمة وحدها، ولكن تبتغي صلاح جميع المخلوقات، بالإضافة إلى أنها أخلاق شاملة لكل أفعال الإنسان. وهكذا فالميثاق الأول يورث الإنسان أخلاقا مؤسسة ومتعدية وشاملة، مما يجعلها أنسب الأخلاق للعالم المنتظر[29].

ب. **حادثة شق الصدر والأخلاق العمقية:** فهي الحادثة التي وقعت للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام من طرف الملائكة، وألقوا من قلبه علقة سوء، وتم غسله وتطهيره من حظ الشيطان، فصلح حال هذا الإنسان النموذجي، وكان بذلك صاحب الخلق العظيم. إن هذه الحادثة التاريخية يجعل منها طه عبدالرحمن مرجعية للهوية الأخلاقية للإنسان، والتي من أهم خصائصها: "أنها أخلاق تطهير. يستفاد من هذا أن كل قلب يحمل بالخلقة في جوفه علقة سوء، لا بد لصاحبه من عملية جراحية معنوية في غاية الدقة والمهارة؛ لكي يتمكن من تطهير قلبه منها"[30]. كما أنها أخلاق تأهيل، أي: أنها أجريت بغاية تحقيق هدف وهو تلقي أمر جلل، فمتى أريد تحقيق أمر عظيم لابد من العودة للنقاء الروحي، فأكمل عقل وأنقى قلب هو ذاك الذي اكتملت فيه العلاقة بين العقل والشرع. وبذلك يلزم أن تكون عقلانية الإسلام أسلم عقلانية[31].

كما أن من صفات هذه الأخلاق أنها أخلاق تجديد، إذ أنها تجدد كينونة الإنسان الروحية، فكل من خضع لهذه الجراحة المعنوية عادت عليه بالراحة الإيمانية، فحادثة شق الصدر إذن: تورث الإنسان أخلاقا تنبني على تطهير الباطن وتؤهله من عمقه للمهام الكبرى، وتمده بأسباب التجديد في أعماقه.[32] وعملية التطهير بالنسبة للإنسان المعاصر، تتجلى في المنهج التربوي التخلقي.

---

[28] - سورة الأعراف ، الآية 172.

[29] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 158- 159.

[30] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص161.

[31] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص 162.

[32] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 163.

ج. **تحويل القبلة:** تعني هذه الحادثة في التاريخ الإسلامي دلالات عميقة ذات بعد تربوي، منها أنها أمدت المسلمين بأخلاق الوحدة والتجمع على وجهة واحدة، رغم ما بينهم من اختلافات. وهم مطالبون اليوم بالعودة إلى تلك الأخلاق والالتزام بها، إنقاذا لأنفسهم، كما أنهم مطالبون بدعوة غيرهم إليها، بصفتها وجهة ربانية حقة، في زمن تصدّعت فيه المرجعيات، وتاهت فيه الوجهات حتى يعتصم بها الناس في مواجهة الشعور بضلال الطريق.[33]

فالقبلة على وجه العموم تمثل جملة من القيم والمقاصد والمثل التي جاء بها دين الاسلام إلى العالم أجمع، فصار الذي يدرك مقاصد هذا الدين (القبلة) إنسانا مسددا؛[34] كونه أدرك يقين مقاصده، لكنه مفتقر إلى إدراك نجوع وسائله؛ ليرتقي إلى مرتبة التأييد. فاهتداء المسلم إلى الطريق الموصلة إلى القبلة، معناه وصول مرتبة التأييد. وحسب هذه النظرية أن الجهل بتلك الوسائل منذر بسوء الحال، وهذا ليس أقل سوءا من ذاك الذي يعاني فقدان القبلة أصلا، وهو شأن الإنسان المعاصر، الذي شاء العيش في منأى عن التربية الروحية، وقرر إسقاط الدين من حياته وعالمه.[35] وبالنظر إلى الإنسان المسلم اليوم، فهو يتوفر على الطريق الموصلة إلى المقصد، لكنه يفتقدها، مما يلزم إصابته بخلل عميق ضرب كيانه بالكلية، حتى أصبح إنسانا تائها "حقا، وتيهه وجوديا كتيهه شهوديا".[36] ولا يمكن الخروج من هذا التيه إلا بإصلاح الإنسان في كليته، بتجديد رؤيته للعالم، وفق ما تبتغيه النظرية التربوية الإسلامية، القائمة على تحقيق تأييد الإنسان المفقود، بأن يكون للإيمان دور جوهري في كينونته، فيتحول إلى طاقة فعالة تتدفق في مظاهر حياته كأنه خلق من جديد.

- من خلال ما تقدم تبين أن طه عبدالرحمن، أقام نظريته الأخلاقية على مثلث، ضلعه الأول: الميثاق الأول، الذي يتعلق بالجمع بين العقل والشرع، وقد تفرع عليه أن الأخلاق الإسلامية، أخلاق كونية، لأنها أخلاق مؤسسة لا مجتثة، ومتعدية لا قاصرة، وشاملة لامحدودة، فتكون بذلك أوفق أخلاق للأفق العالمي للإنسان المنتظر؛ والثاني، "ركن شق الصدر" وهو يتعلق بالجمع بين العقل والقلب، وقد تفرع عليه أن الأخلاق الإسلامية أخلاق عمقية، لأنها أخلاق تطهير لا تجميل، وتأهيل لا تثبيط، وتجديد لا

---

[33] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 167. وقويدري الأخضر، معالم الإنسان الائتماني، .20-05-2019

[34] - قسم طه عبدالرحمن عقل الإنسان إلى ثلاثة أقسام ، فحيث تجهل المقاصد والوسائل معا سمي عقلا مجردا، وحيث تعلم المقاصد وحدها سمي عقلا مسددا، وحيث يعلم اليقين في نفع المقاصد وفي في نجوع الوسائل، فهو عقل مؤيد، وهو أرق عقول الإنسانية.

[35] - إبعاد الدين عن مختلف المجالات يطلق عليه طه عبدالرحمن الديانية.

[36] - طه عبدالرحمن، من الإنسان الابتر إلى الانسان الكوثر، ص، 44.

تقليد، وبهذا تكون أوفى أخلاق بحاجة الحياة الخاصة للإنسان المنتظر؛ والثالث، "ركن تحويل القبلة"[37]. كما ينبغي أن يتم الأخذ في النظرية الأخلاقية الإسلامية بكونها: أخلاق كونية لا محلية وعمقية لا سطحية، وحركية لا جمودية، وأي أخلاق هذه طبيعتها لن تكون إلا الأخلاق الحسنى.[38]

- إن رؤية طه عبدالرحمن للقيم قامت على نقدها للقيم في المذاهب المعاصرة، تلك التي أقامت توجهها على ظروف خاصة، تمثلت في استحضار مبادئ الحداثة والليبرالية والصدام الحضاري، إذ الحداثة قامت على مبدأ التعارض بين العقل والدين، أما الليبرالية فقامت كذلك على مبدأ التعارض بين السياسة والأخلاق، أما الصدام الحضاري فيقوم على مبدأ التطابق بين الثقافة والأخلاق. فطه عبدالرحمن بعد أن فند هذه التوجهات، دعا إلى توجه قيمي جديد، يقوم على تعددية قيمية جديدة، سماها بمبدأ تصادف القيم ضدا على مبدأ تعددية القيم المتصادمة ذات الامتداد الغربي، ويقوم التوجه الطهاوي للقيم على إزالة أسباب التصادم والتي حددها في آفات ثلاثة:

- آفات تسيب العقل،
- آفات تسلط السياسة،
- آفات تطرف الثقافة،

ليستعيض عنها فيبث في العقل قيمة الإيمان فيصير عقلا ملكوتيا، ويزرع في السياسة قيمة الخير فتصير سياسة أخلاقية، ويبث في الثقافة قيمة الفطرة لتصير ثقافة متصلة، فتقوم بذلك نظرية قيمية لا تسيب عقلي فيها ولا تسلط سياسي ولا تطرف ثقافي[39]. فالرجل يرفض القيم الغربية ولا يرى إلا أنها جاءت لهدم القيم الإسلامية، مبرزا المزاعم التي جاءت بها، ومن ذلك؛ أن موازين القيم تقوم على القوة بدل الحق، فكانت قيم الغرب أفضل القيم على الإطلاق لظهور قوته على غيرها ... وما دام أنه خلص إلى أن الحضارة الغربية قد ارتكزت على جانب العقل والعلم، معتقدة أنه لا أخلاق في العلم ولا غيب في العقل، وأن كل هذا أسهم في ظهور ما سمي بأزمة القيم في المجتمعات الغربية. وفي ظل التضييق المضروب على الخصوصيات الإسلامية، قام طه عبدالرحمن منذرا البشرية ومبشرا بمشروعه الجديد الذي يجعل منه مدخلا لإصلاح ما أفسدته الحضارة المعاصرة، وأساس مشروعه قائم على الأخلاقية، فقد رآها قادرة على

---

[37] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 169- 170.

[38] - طه عبدالرحمن، سؤال الأخلاق، ص، 169- 170.

[39] - طه عبدالرحمن الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، ص، 77.

رد الاعتبار للإنسان والعمران معا، من خلال ملء الفراغ الروحي وتخليق النظم العلمية والتقنية، فضلا عن الحياة الاجتماعية وفق تعاليم الإسلام. فهو بهذا الاعتبار أعاد النقاش لموضوع سؤال الأخلاق في الواقع المعاصر ،ولكن من منظور إيماني أصيل، يستطيع أن يسعد الإنسانية جمعاء. وهكذا نجد مشروع طه عبدالرحمن قد اتسم بطابع الشمولية والواقعية، فهو مشروع تجاوز تنظيم الجانب الروحي/الداخلي في الإنسان إلى الإشراف على الجانب الخارجي بما في ذلك مجال السياسة العامة، ومن ثم فلن تجد مجالا من مجالات الإنسان إلا والرؤية الطاهوية تنظمها من خلال إطارها العام وهو الأخلاقية.

وصولا لهذه الغيات، عمل صاحب كتاب: التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، في كل كتاباته على إعلاء من شأن القيم الأخلاقية، وأسس لها انطلاقا من المنظور الشرعي حين ربطها بعلم المقاصد، ووجد أنهما وجهان لعملة واحدة، أي: إن المقاصد هي الخلق نفسه، وسمى علم المقاصد بعلم الصلاح، "وبهذا يتضح أن التعريف الذي يوفي بحقيقة علم المقاصد هو باختصار، أنه علم الصلاح؛ إذ يجيب هذا العلم عن السؤال التالي: وهو كيف يكون الإنسان صالحا؟ أو كيف يأتي الإنسان عملا صالحا؟ ومعلوم أن الصلاح قيمة خلقية، بل هو القيمة التي تندرج تحتها جميع القيم الخلقية الأخرى، فيكون هو عين الموضوع الذي اختص علم الأخلاق بالبحث فيه"[40]. إن علم المقاصد يعد علما أخلاقيا، فهو يهتم بالصلاح الإنساني، "وحد الصلاح أنه قيمة أخلاقية، بل هو رأس القيم الأخلاقية، وحد الأخلاق أنها تبحث في الصلاح"[41].

3. المدخل المفاهيمي وتجديد الرؤية المقاصدية:

انطلق طه عبدالرحمن في تشكيله لرؤيته التجديدية في علم المقاصد من مدخل مفاهيمي، حيث توقف عند دلالات مفهوم "المقاصد،" هذا المنحى الذي يرى فيه الرجل، أن لا أحد من سبق قد تناوله، فتعامل معه وفق تقسيم ثلاثي، المقصد بمعنى المقصود، والمقصد بمعنى القصد، والمقصد بمعنى الغاية.

أ. **المقصد بمعنى المقصود:** ويعني بذلك مقصود القول ومراده، أي: المضمون الدلالي الذي يتضمنه سياق كلام القائل. فمقاصد الشريعة، يراد بها مقصودات الشريعة، أي المضامين الدلالية المرادة للشارع

---

[40] - مجلة المسلم المعاصر، عدد، 103، ص 43.

[41] - طه عبدالرحمن، تجديد المهج في تقوين التراث، ص، 103.

بأقواله التي يخاطب بها المكلفين"[42]. وبما أن علم المقاصد علما أخلاقيا، يحكم مرامي الأقوال الشرعية، لأنه ينبني على نظرية الأفعال، التي تهتم بالمضمون الخلقي للفعل الشرعي، والذي بدوره يقوم على مفهومين: الإرادة والعمل.

ب. **المقصد بمعنى القصد:** أي قصد القائل، والمراد به نيته، أي: "المضمون الشعوري للقائل الذي يصاحب مدلول قوله في سباق الكلام أو مقامه"[43]. ولذلك فطه يرى أن علم المقاصد علما أخلاقيا ينظر في قصود ونوايا الشارع والمكلف، وجب أن يقوم على ركن ثان وهو نظرية النيات، لتنظر في مختلف الجوانب الأخلاقية عبر الإرادة والإخلاص.

ج. **المقصد بمعنى الغاية:** يفيد حسب طه المقصد هنا الغاية المرغوب فيها، والمراد تحقيقها، "أي القيمة التي يتوجه إليها القول وتوجهه؛ فيكون المقصد هنا بمعنى المضمون القيمي الذي يقرن به المتكلم مدلول قوله في سياق الكلام أو في مقامه...فإذا قيل مقاصد الشريعة، فقد يكون المعنى هو قيم الشريعة"[44]. فعلماء الأصول وظفوا المعنى الأخير للمقاصد بمعنى المصلحة يقول طه، فكل من المصلحة والقيمة تدل على مسمى واحدا، ولما كان علم المقاصد أخلاقيا غايته النظر في القضايا المرغوب فيها وجب أن يبنى على المفهوم الثالث وهو نظرية القيم.

فرؤية التجديد في علم المقاصد، تتكون من الفعل والنية والقيم، وينتج عن هذه المفاهيم الثلاثة، علاقة ثنائية، تتعلق بعلاقة الفعل بالنية، وبعلاقة النية بالقيمة، وعلى هذا التأسيس وضع هذه العناصر الثلاثة، فجعل الرتبة الأولى للقيمة والثانية للنية والثالثة للفعل، فتحصل له جعل نظرية القيم هي الأصل التي عليها تقوم نظرية النية ونظرية الفعل.[45]

4. مركزية المدخل القيمي في تجديد النظر المقاصدي:

---

[42] - مجلة المسلم المعاصر، عدد، 103، ص، 44.

[43] - المرجع نفسه، ص، 45.

[44] - مجلة المسلم المعاصر، عدد، 103، ص 45.

[45] - مجلة المسلم المعاصر، بتصرف، ص، 46.

استحضر طه عبدالرحمن التقسم التقليدي للمقاصد، وقدم اعتراضاته عليه، سواء فيما يتعلق بالتصنيف أو الحصر، كون التصنيف أتى بالضروريات ثم الحاجيات والتحسينيات، وهذا ما جعل الرجل يدعو إلى إعادة النظر في عمل الأصوليين القدامى، فهو يقول: "وعلى شهرة هذا التقسيم والترتيب لقيم الشريعة، بين الأصوليين فإنه يمكن أن نورد عليهما اعتراضات منهجية مختلفة، عامة وخاصة، تدعو إلى المبادرة بوضع تقسيم وترتيب جديدين لهذه القيم الأخلاقية"[46].

وقد تجلى اعتراض طه على هذا التقسيم في اعتراضين؛ عام وخاص:

فأما الاعتراض العام، فيتمثل في أن هذا التقسيم يخل بشرط التباين، بحيث إن هذه التقسيمات تتداخل في ما بينهما وليس هذا من شروط التقسيم. وأما الاعتراض الخاص، فقد جعله لقسمي الضروريات والتحسينيات، فقد وجد أن الضروريات تخل بشرط تمام الحصر، حين جعلوها في خمسة فقط، والحال أنه يمكن إضافة قيمة أخرى تظهر مع مستجدات حياة الإنسان، بالإضافة إلى الإخلال بشرط التباين، وذلك أن هذه الأنواع الخمسة لا يوجد بينها إلا التداخل، والإخلال الثالث يتجلى في شرط التخصيص، "إذ ليست كل قيمة من هذه القيم أخص من الأصل المحصور الذي هو الشريعة "[47].

وأما عن الاعتراض الخاص فيتمثل في:

- تأخير ما ينبغي تقديمه، إن الأصوليين قصروا القيم التحسينية على مكارم الأخلاق، وهذا لا يستقيم، ما دام علم المقاصد يبحث في المصالح، والمصالح هي القيم الأخلاقية، وبما أن صلاح الإنسان يتحقق من هنا، فوجب أن تحظى القيم بالصدارة بدل التهميش والاختزال.
- إهمال رتب الأحكام: ادعى الأصوليون أن التحسينيات لا يترتب عليها أي إخلال بنظام ولا يصيب الناس بحرج.
- إهمال الحصر المفيد لعلو الرتبة: فالأصوليون خرجوا عن مدلول الحديث النبوي: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[48]. فأنزلوه على الفضائل والزوائد، فمضامين الحديث تدعو إلى أن الشريعة أخلاق،

---

[46] - مجلة المسلم المعاصر، عدد، 103، ص 50.

[47] - المرجع نفسه، ص51.

[48] - الإمام مالك، الموطأ، كتاب حسن الخلق، كتاب ما جاء في حسن الخلق، وقم الحديث8.

ولا بد أن تنزل في مراتب العليا. ومن خلال اعتراضات الرجل على تلك التقسيمات طرح بديلا عنها آخذا بعين الاعتبار مركزية القيم الأخلاقية في هذا التجديد.

لقد عمل طه عبدالرحمن جاهدا على التأسيس لعلم المقاصد انطلاقا من طرح سؤال المشروعية، فلم يقف عند الشرعية في البحث عن الحكم الفقهي وإنما ناقش التأسيس الذي ينطلق من المشروعية، وفي هذا يقر بأن سؤال المشروعية لم يكن حاضرا عند المقاصديين، ولعل ذلك حسب طه راجع إلى انشغال الفكر المقاصدي بالبلاغ النبوي بدل البحث في الخطاب الإلهي الذي جاء سابقا لهذا البلاغ ، حين خاطب الله تعالى الإنسان وأخذ منه الإقرار بربوبيته تعالى.

إن جوهر النظر الائتماني عند طه عبدالرحمن يقوم على أركان ثلاثة: الفطرة والإرادة والتزكية. وعليها بنيت أبواب كتابه: "التأسيس الائتماني لعلم المقاصد" حيث جاء بابه الأول معنونا ب: تأسيس الفطرة على ميثاق الإشهاد والثاني ب: تأسيس الإرادة على ميثاق الاستئمان. والثالث ب: تأسيس التزكية على ميثاق الإرسال.

وانطلاقا من الباب الثالث وضع الكتاب تقسيما ائتمانيا للمصالح الشرعية باعتبار تضمنها للقيم، ثم وضع ترتيبا ائتمانيا لها باعتبار تبعية القيم الغريزية للقيم الفطرية، فشمل هذا الترتيب من الأعلى إلى الأدنى "القيم الروحية ثم القيم العقدية، ثم القيم العملية، ثم القيم العقلية، ثم القيم الحيوية، فالقيم المادية"[49].

أسس ومبادئ التقسيم الائتماني لأصول القيم:

- مبدأ الفرق بين العبدية التسخيرية والعبدية التخييرية
- مبدأ قيمية كل شيء.
- مبدأ أخلاقية كل شيء.
- مبدأ تقديم القيم الغائية على القيم الوسيلية.

تقسيم القيم الأخلاقية: تم تقسيم هذه القيم إلى: قيم فطرية (أسمائية) وإلى قيم غريزية (أشيائية).

---

[49] - طه عبدالرحمن، التأسيس للائتماني لعلم مقاصد الشريعة، ص، 506.

وتم تقسم القيم الغريزية إلى: **قيم حيوية** التي تتولى حفظ الأنفس والأبدان. وإلى **القيم المادية** التي تتولى حفظ الممتلكات والمتقومات[50].كما تم تقسم القيم الفطرية إلى قسمين:

قيم التوحيد الإشهادي: ويشمل القيم العقدية والروحية ويدخل تحت القيم العقدية: قيم العزم وقيم الإيمان. كما يدخل ضمن القيم الروحية: قيم النية وقيم الإخلاص وقيم الإحسان.

قيم المسؤولية الائتمانية، ويدخل ضمنها: قيم عقلية؛ وتشمل قيم العلم والنظر والمعرفة. وقيم عملية؛ وتضم قيم الأداءات والمهارات..[51]. فتحصلت من هذه التقسيمات القيم الستة الآتية:

القيم الحيوية والقيم المادية والقيم العقدية والقيم الروحية والقيم العقلية والقيم العملية..[52]

فطه عبد الرحمن أبرز بهذا المجهود العلاقة التلازمية بين المصلحة والقيمة، واستطاع بذلك تخليق الشريعة وترسيخ تكاملها الأخلاقي والآمري.

يمكن القول: إن بهذا التقسم الجديد، عمل طه عبدالرحمن على إعادة التفكير في النظرية المقاصدية التقليدية، والتي تعتبر في التعليل المقاصدي التراتبية حسب الأهمية، فوضعت الضرورات والحاجبات والتحسينيات، وحسب طه عبدالرحمن أنها حصرت القيم في باب التحسينيات، بناء على أنها من الفضائل، مما جعله ينطق بالقول إن الترتيب التقليدي تضمن القيم المادية، أما تحييد الأخلاق أو تهميشها فهذا ضرب من الفساد، ولذلك اقترح تقسيما جديدا يقوم على ترتيب جديد أيضا، فبعدما كانت الضروريات في المركز الأول تحولت إلى المرتبة الثانية والثالثة، وبعدما كانت التحسينيات في الرتبة الأخيرة، أخذت مكانتها في الصدارة في الترتيب الجديد. فقد صرح قائلا: "إذا كان المقاصديون قد استنبطوا أحكامهم على مقتضى الترتيب الائتماري للكليات الضرورية، فإن هذا الاستنباط لايورثهم إلا الشرعية، أما تحصيلهم للمشروعية فيتطلب منهم أن يتخذوا الترتيب الائتماني للكليات القيمية، ويبنوا عليه أحكامهم، فيقدمون أحكام الروحي على أحكام العقدي، وأحكام العقدي على أحكام العملي، وأحكام العملي على أحكام العقلي، وأحكام العقلي على أحكام الحيوي، وأحكام الحيوي على أحكام المادي، ولو يعتمدون هذا الترتيب الائتماني، لجعلتهم المشروعية التي يحصلونها بفضله يفتحون بها معاني الدين أبوابا لم يسبق

---

[50] - نفس المصدر، ص، 447.

[51] - طه عبدالرحمن، التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، ص، 475- 476.

[52] - نفس المصدر، ص، 475.

إليها، ويستنبطون لتزكية الإنسان أسبابا لم يلتفت إليها من قبل، فضلا عن الاهتداء إلى توسيع آفاق المقاصد بما يجعل البحث فيها علما عالميا لا يستغني عنه أحد"[53].

وقد تقدم أن علم المقاصد يبحث في المصالح، وأن المصالح ليست إلا علما آخر للقيم الأخلاقية؛ لأنها هي وحدها التي يصلح بها حال الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك لزم أن تكون الأخلاق أولى بالرتبة الأولى من غيرها"[54]. وبعدما يزيد عن عشرين سنة من عمر هذا التصور الطاهوي، نجده في كتاب التأسيس الائتماني لعلم المقاصد يبقى على أصول رؤيته ويعدل في بعض المفاهيم والتقسيمات توضيحا وبيانا، حين ذكر أن المقاصديين خلطوا بين القيم الفطرية والغريزية ولم يفرقوا بينها، بل اعتبروا الكل قيما فطرية، مع العلم أن الفطرة محل القيم المعنوية من أجل الصلاح، أما الغريزة، محل القيم المادية من أجل البقاء، ولذلك يؤاخذ على المقاصديين كونهم اعتنوا أكثر بقيم البقاء وجعلوا عنايتهم بقيم الصلاح تابعا لها، وجاءوا بترتيب مقلوب يقدم القيم الغريزية على ما عداها.[55]

بناء على ذلك، جاء نظر طه عبدالرحمن يسم المقاصد ببعدها الغائي، أي: تحقيق منظومة القيم أو تخليق المقاصد، إيمانا منه أن العلاقة بين القيم والمقاصد علاقة تكاملية، "يمكن القول إن هناك تلازما وجوديا بين المصلحة والقيمة، فالقيمة لا توجد بغير وجود المصلحة، كما أن المصلحة لا توجد بغير وجود القيمة"[56]. فهو إذ يذكر هذا إنما يريد التأكيد على إعطاء المركزية للقيم في التشريع الإسلامي، خاصة حين يعتقد أن ما من حكم من الأحكام الشرعية إلا ووراءه قيمة خلقية. وما من حكم شرعي إلا ووراءه مصلحة أخلاقية، بل إن الحكم الشرعي - حسب ما يراه - له وجهان، وجه فقهي ووجه أخلاقي. وفي هذا يقول: "ومتى سلمنا أن كل حكم شرعي مبني على الفطرة هو بمنزلة قاعدة تقوم السلوك، لزم أن يكون كل حكم شرعي ناهضا بتقويم الأخلاق".[57] ويضيف في نفس السياق: "ومتى سلمنا أن كل حكم شرعي معلق بالمصلحة، وأن المصلحة قيمة أخلاقية، وجب أن يكون كل حكم شرعي معلقا بالقيمة الأخلاقية"[58]. فتحصلت من كل

---

[53] - طه عبدالرحمن، التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، ص، 479.

54 - طه عبدالرحمن، مشروع تجديدي لعلم المقاصد، مجلة المسلم المعاصر، عدد، 103، 2002ص، 51.

[55] - طه عبدالرحمن، التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، ص، 500.

[56] - طه عبدالرحمن، التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، 460.

57 - طه عبدالرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص، 103.

[58] - نفس المصدر، ص، 104.

ذلك نتيجة مفادها: "أن كل حكم شرعي يحمل أقوم وأسمى القيم الإسلامية"[59]. كما أن الأخلاق شاملة للفقه، إذ "كل الفروع الفقهية مبنية على مبادئ علم الأخلاق المتداخل مع علم الأصول تداخلا داخليا"[60].

وعليه، فلا يمكن القول بانفصال علم الأخلاق عن الفقه والمقاصد أو العكس، فكلاهما يؤيد الآخر ويوصل إليه. والغرض كما سبق القول من المقاصد والأحكام، إنما هو صيانة منظومة القيم. وقد سبق أن ذكر أكثر من مرة عند حديثه عن التأسيس لعلم بالمقاصد حين قال: "ولا يخفى أن تأسيس علم المقاصد على الصلاح أو الإحسان يجعل منه علما أخلاقيا بحق"[61].

ومما سبق يظهر أن الرجل وسع من دور المقاصد دون تضييق نطاق النص، حين جعل مهامها لا تنحصر في ظواهر المصالح، بل يتطلع لاستخراج القيم التي تتضمنها على اعتبار أن وجود المصلحة هو وجود خارجي أو ظاهري، في حين يكون وجود القيمة وجودا داخليا أو باطنيا.

فالرجل يفتح آفاق هذه المقاصد، ويربطها بتحقيق التنمية في بعدها الشمولي والكوني. فيرى أن كل إصلاح عبارة عن تنمية للإنسان، لذلك صح أن نتحدث عن تزكية الاعتقاد وتزكية الفكر وتزكية العبادة وتزكية البواطن وتزكية الأبدان وتزكية الأعمال وتزكية الأموال وتزكية المعاملات والمشاريع وتزكية المجتمع وتزكية العالم. أو بإيجاز فحيثما وجدت أسباب التنمية ظاهرة أو باطنة، مادية أو معنوية، فثمة فرص التزكية. فطه عبدالرحمن جعل وظيفية المقاصد تتحقق بتربية وتنمية المجتمع، وتحقيق رفاهيته، وفق منظور شمولي، بدءا ببناء الإنسان وانتهاء بتشييد العمران.

خلاصات واستنتاجات:

من خلال هذا البحث يظهر أن علم المقاصد يعد مرجعا لنظرية الأخلاق، وأن العلاقة بينهما علاقة تكاملية، وأنه جهود طه عبدالرحمن جاءت في سياق تجديد هذه العلاقة انطلاقا من رؤية فلسفية، فقد تبين أن الرجل دعا إلى التجديد في علم المقاصد الشرعية عبر آلية التخليق وإعادة ربط الأخلاق بالشريعة، والشريعة بالأخلاق، وفق منظور تكاملي، يحقق غاية الحكم الشرعي، وهي: صيانة منظومة القيم، وتحقيق مبدأ الصلاح فيها وتنميتها. ودعا لتحقيق ذلك إلى إعادة النظر في البناء المقاصدي، وتحديدا تجديده بما

---

[59] - نفس المصدر والصفحة.

[60] - طه عبدالرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص، 105.

[61] - طه عبدالرحمن، التأسيس الائتماني لعلم المقاصد، مركز نهوض للدراسات والبحوث، ط1/2022، ص،

يحقق وظيفيته، ومنه: جعل الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، دون أن يفقد النص الشرعي سلطته، بل العمل بالنص روحا ولفظا هو مقصد المقاصد وغاية الغايات عند صاحب التأسيس الائتماني لعلم المقاصد.

وانطلاقا من هذا، خلصت الورقة إلى جملة من النتائج ومنها:

البنية الخلقية هي الروح التي تسري في التشريع الإسلامي، وأن المرغوب أصالة في الحكم الشرعي هو القيمة الخلقية.

السياق المعاصر أبرز كثيرا من الدعوات تروم إعادة تأصيل الأصول، ولا سيما أصول الفقه، وبناء منهجية تفكير جديدة، تأخذ بعين الاعتبار المقاصد والوقائع المعاصرة، وتدعو إلى عملية تأسيس معقولية الأحكام، استجابة لتحقيق مصالح الناس.

انبرى الدكتور طه عبدالرحمن لعلم المقاصد من زاوية دفاعية وبمنظور فلسفي ونفس أخلاقي، حين تبين له أن التراث الإسلامي وخاصة الدرس المقاصدي منه، يحتاج إلى قراءات منهجية وتجديدية.

لقد جعل طه عبدالرحمن علم المقاصد علما أخلاقيا، ودعا إلى تجديد الدرس المقاصدي بربطه ببعده الغائي، وهو صيانة منظومة القيم أو تخليق المقاصد، إيمانا منه أن العلاقة بين القيم والمقاصد علاقة تكاملية، إذ يرى أنه ما من حكم من الأحكام الشرعية إلا ووراءه قيمة خلقية.

إن الدرس الإسلامي عامة والمقاصدي خاصة، يعد أساسا لنظرية القيم، وأن هذه الأخيرة، تأخذ وفق هذا السياق بعدا شموليا، تنتظم فيها كل احتياجات الإنسان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية، وأن هذه القيم كونية في مبادئها؛ كونها تستجيب للفطرة الإنسانية، خصوصية في مفهومها كونها تقوم على مرجعية محددة.

لترسيخ البعد التكاملي بين العلوم الشرعية والموضوعات الإنسانية، نحتاج إلى آليات العمل وفق رؤية علمية موضوعية، تنطلق من أسس ثابتة وتبحث عن الجسور والروابط قصد الوصول إلى نقط التكامل وجعل ذلك مدخلا لتحقيق التقارب والنماء بين الإنسان.

المصادر والمراجع:

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الجزء : الثاني و الرابع، دار الفكر، الطبعة: 1399هـ 1979م.
- أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، دار الحديث القاهرة، تحقيق عبدالله دراز، 2006.
- أحمد الريسوني، محاضرات في مقاصد الشريعة، دار الأمان، ط/1، 2009.
- أحمد مهدي، عبد الحليم، **تعليم القيم فريضة غائبة** . مجلة المسلم المعاصر، عدد 65 . 66، سنة 1992 . 1993م.
- أعمال ندوة دولية حول **سؤال القيم في العلوم الإسلامية بين الخصوصية والكونية**، كلية الآداب ظهر المهراز فاس، 26-027 نونبر 2019.
- الإمام مالك، **الموطأ، كتاب حسن الخلق**، كتاب ما جاء في حسن الخلق، وقم الحديث8.
- الجلاد، ماجد زكي، **تعلم القيم وتعليمها تصور نظري وتطبيقي لطرائق واستراتيجيات تدريس القيم**، دار المسيرة، عمان . الأردن، الطبعة الرابعة، 2013م.
- سعيد حليم، **القاصد العليا للشريعة الإسلامية من مقاصد الوجود إلى مقاصد الشهود**، مطبعة أميمة، ط/1، 2010.
- **سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر**، الرابطة المحمدية للعلماء، أعمال الندوة الدولية أيام 25-26- 27 ماي 2011.
- السيد، رضوان "**منظومة القيم والحياة الأخلاقية في الرؤية الإسلامية**"، مجلة التسامح، عدد 28.
- الصمدي، خالد، **مقال مستقبل التربية على القيم في ظل التحولات العالمية المعاصرة**، صدر عن مجلة البيان.
- طه عبدالرحمن، **التأسيس الائتماني لعلم المقاصد**، مركز نهوض للدراسات والبحوث، ط2022/1.

- طه عبدالرحمن، تجديد المهج في تقوين التراث
- طه، عبدالرحمن، **دين الحياء من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني**، الجزء الأول، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت .لبنان، الطبعة: الأولى، 2017.
- طه، عبدالرحمن، **دين الحياء من الفقه الإئتماري إلى الفقه الائتماني**، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت .لبنان الطبعة الأولى، الجزء الثالث، 2017.
- طه، عبدالرحمن، **روح الحداثة وحق الإبداع**، مجلة النور الجديد، عدد: 151، دجنبر 2003
- طه، عبدالرحمن، **روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .المغرب، الطبعة: الأولى، 2012.
- طه، عبدالرحمن، **مشروع تجديد علمي لمبحث مقاصد الشريعة**، مجلة المسلم المعاصر. عدد: 103، مارس 2002.
- طه، عبدالرحمن، **من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر**، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.
- عابد الجابري، محمد، **العقل الأخلاقي العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت .لبنان، الطبعة السادسة، 2014.
- علال الفاسي، **مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- الغزالي، أبو حامد، **المستصفى من علم الأصول**، تحقيق أحمد زكي حماد، دار الميمان، الرياض. السعودية، (بدون رقم وسنة الطبعة).
- الكور، عبدالجليل، **مفهوم الفطرة عند طه عبدالرحمن**، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2017.
- المجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي، **التربية على القيم بالمنظومة الوطنية للتربية والتكوين والبحث العلمي**، 17/1، يناير 2017

- محمد الطاهر بن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، دار السلام، 2005.
- مسكويه، **تهذيب الأخلاق**، تحقيق عماد الهلالي، من منشورات الجمل، بيروت .لبنان، الطبعة الأولى.
- نور الدين الخادمي، **أبحاث في مقاصد الشرعية**، مؤسسة المعارف، ط/1، 2008
- ينظر ابن فارس، **معجم مقايس اللغة**، تحقيق عبدالسلام هارون، ط/1، 1991، دار الجيل بيروت، ج/5.